**الشعر في الأدب العربي في الأندلس**

أ-مراحل تطور الشعر

ب- فنونه :

الفنون التقليدية .

الفنون المستحدثة .

ج- نماذج شعرية لكل فرع من فنون الشعر السابقة .

**مراحل تطور الشعر**

مر الشعر في العصر الأندلسي بمراحل مختلفة مرتبطة بالحياة السياسية على النحو التالي :

1. كان الشعر الأندلسي **عقب الفتح الإسلامي** غير متميز الملامح مجهول الهوية ؛ لانصراف المسلمين إلى الحروب لتوطيد أركان الدولة الجديدة , لذا عاش الأندلسيون في الحقب الأولى عالة على شعر إخوانهم المشارقة ’ حتى من تصدى منهم لقرض الشعر وهم قلة , قلد إخوانه المشارقة في المضمون والشكل , ومن هؤلاء : "أبو الأجرب جَعْونة بن الصمة ", وقد أورد ابن سعيد في المغرب بيتين له يقول فيهما :

ولقد أراني من هواي بمنزل عال ورأسي ذو غدائر أقرع

والعيش أغيد ساقط أفنانه والـماء أطـــــــــــــيبه لنا والمــــــــرتع

فهذا الشعر وأضرابه يجري في صياغته على أسلوب تقاليد مدرسة المشرق المحافظة ؛ إذ يعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة , وسطحية الفكرة , وبداوة الصورة التي لم تتأثر بالحضارة الجديدة , ولم تصهرها رؤية الشاعر الأندلسية الساحرة , وانفعاله بجمالها .

1. ثم كان "عبدالرحمن الداخل " الذي أسس دولة أموية بالأندلس فازدهرت النهضة الفكرية في عصره وفي عصور من أتى عقبه من أبنائه وأحفاده ( خاصة الشعر ) فقد بدأ في هذا العهد يتطور ويزدهر , ويتخذ لنفسه طرائق جديدة , حتى الأمراء أنفسهم كانوا شعراء , فلعبدالرحمن الداخل شعر جيد منه هذه الأبيات التي يحن فيها إلى موطن آبائه وأجداده :

أيها الــــــــــــــركب الميمّم أرضي إقر من بعضـــــي السلام لبــعضي

إن جسمي كما تراه بأرضٍ وفــــــــــؤادي ومــــــالــــــــكيه بأرضــــــــــــي

قُدِّر البيــــــن بينـــــــــنا فافترقـــــنا وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الله بالعباد علينا فعسى باقتـــرابنا ســـــــــوف يقضي

ومن شعراء هذا العصر " عباس بن ناصح " من أهل الجزيرة الخضراء وكان على حظ كبير من العلم باللغة والرواية والشعر , وغطت شهرته كشاعر على شهرته كعالم , وخلف ديوان شعر , كان موضع عناية الأندلسيين لكنه فُقد , ويدور شعره حول المدح والحماسة والفخر , فمن شعره الحماسي :

تململت في وادي الحجارة مُسهدا أُرَاعي نجومـــــــــــا ما يّرِدن تغُّيرا

إليك أبا العاصي نضـــــــيتُ مطيتي تســــــــــــير لهمٍّ ســــــــاريا ومهجّرا

تَــــــــــــــدارك نــــــــــــساء العالمين بنصرة فإنك أهل أن تُغيثَ وتَنْصُرا

غير أن شعر هذه الفترة لم يستقل استقلالا تاما عن شعر المشارقة , ولم يتأثر بعد بطبيعة الأندلس الفاتنة , وإذا كان له فضل ففي تسجيل المعارك الحربية التي دارت رحالها بين المسلمين والإسبانيين في ألفاظ قوية , وأساليب سهلة , ومعان قريبة التناول .

1. ثم انهارت الخلافة الأموية وسادت الفوضى أرجاء الأندلس وهو ما يسمى بعصر الفتنة , حتى جاء عصر الطوائف , وبرغم النزاعات المستعرة والمتواصلة بين ملوك هذا العصر , فإنه يعد عصرا ذهبيا للشعر والشعراء ؛ فقد كان ملوك الطوائف يتنافسون فيما بينهم في جذب الشعراء إلى دولهم , واجتهد كل واحد منهم في أن يكون له أكثر من شاعر يتغنى بأمجاده ومفاخره , فكثر الشعراء وتكالب عليهم الأمراء , مما أدخل في نفوسهم التيه والعجب .

فالشعر أضحت له المنزلة العظيمة , والمكانة المرموقة عند الجميع , يتسابقون إليه , ويتبارون في جني ثماره , واستنشاق رياحينه حتى بلغ من منزلة الشعر عندهم أن أبياتا من الشعر كانت كفيلة بالتجاوز عن كل ذنب , ونسيان كل إساءة , حتى الحدود كانوا يغضون عنها أمام روعة الشعر وفتنته .

أما بنو عباد ( أصحاب إشبيلية ) فقد احتل الشعر في بلاطهم المكانة المرموقة , والمنزلة الرفيعة , فبزّوا غيرهم وتربع الشعر على عرشهم وأصبح الناس جميعا في هذا العصر يتسابقون في قرض الشعر أو حفظه فاحتل بهذا في نفوسهم مكانا عظيما .

وأخذ الشعراء يجوبون الأندلس طولا وعرضا يقصدون بيوت الأمراء فينالون جزيل الصلات , وتفيض جيوبهم بالذهب والفضة , وتخلع عليهم أعظم الوظائف قدرا , وأعلاها منزلة , حتى أن الواحد منهم كان يصل إلى كرسي الوزارة بقصيدة شعر .

وتراسل كبار الأندلسيين بالشعر كالمعتمد بن عباد وكانت بطاقاتهم تحمل عبارات العتاب والاعتزاز , إلى أن صارت حياتهم كلها شعرا , ينامون على نغماته , ويستيقظون على إنشاده ويمثل هذا الطور من الشعراء : ابن زيدون , وابن عمار , والمعتمد بن عباد , والأعمى التطيلي , وأبو بكر بن قصيرة , وغيرهم.

فشعراء هذا العصر يعبرون عن حاضرهم , ويمثلون بيئتهم ومظاهرها والنفس ومشاعرها , مه الأخذ بحظ من التقليد للشعر المشرقي .

1. أما المرابطين الذين ردوا إلى الأندلس وجهها العربي ووحدتها الإسلامية وقوتها السياسية فإنهم كانوا ميالين إلى التأدب بالأدب العربي شعره ونثره , لذا كانوا قبل عبورهم إلى الأندلس يجتذبون أهل الأدب والشعر من الأندلس إلى بلاطهم الناشئ في جنون مراكش , فلما عبروا إلى الأندلس , وعاشوا بها بذلوا العطايا للأدباء والشعراء , ولم يستعملوا في دواوينهم إلا الأدباء الأندلسيين .
2. أما الشعر في دولة الموحدين فكانت له المنزلة الرفيعة , والمكانة المرموقة لدى الخلفاء , لما في جبلتهم من ميل كبير إلى العلوم والأدب , ولتشجيعهم الشعراء , بل الخلفاء أنفسهم كانوا ينقدون الشعر , بل ويقرضونه.

ولم تبلغ الموشحات أوج كمالها إلا في عصر الموحدين , ومن ألمع وشاحي هذا العصر : الوزير أبو بكر بن زهر , أما أبرز شعرائه فهم : الكتندي وهو من أهل غرناطة وكان أديبا كاتبا , وشاعرا متمكنا في علوم التربية .

ومن أعظم شعراء هذا العصر شأنا " أبو عبدالله محمد بن غالب البلنسي " المعروف بالرصافي , نسبة إلى رصافة بلنسية التي ولد بها , وسكن غرناطة ومالقة , وبرع في النثر والشعر . ومن شعره قصيدة في مدح عبدالمؤمن يقول فيها :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قَبَسْتَ ما شِئْتَ مِنْ علم ومن نُور

من كل زهــــــــــــــــــــــراء لم تـــــــــــرفع ذؤابتـــــها ليلًا لســـــــــار ولم تشبــــــــــب لمغمـــــــــــــــور

ومن الشعراء المشهورين في هذا العصر :" إبراهيم بن سهل الإشبيلي " اشتهر في الشعر لا سيما الموشحات , ومن أروع قصائده رائيته في مدح النبي وقد مات غريقا .

**فنون الشعر الأندلسي التقليدية**

من الظواهر التي تسترعي نظر الباحث في الشعر الأندلسي , ظاهرة "شيوع الشعر " بين عرب الأندلس على اختلاف طبقاتهم .

فالشعر في الأندلس لم يكن وقفا على الشعراء وحدهم , وإنما شاركهم في نظمه , وإلى حد الإجادة أحيانا , كثير من أهل البلاد , على اختلاف أهوائهم ومشاربهم , وقد نظم الأندلسيون في جميع الشعر العربي , وزادوا عليها بعض فنون اقتضتها ظروف بيئتهم وأوضاع مجتمعهم .

ويمكن تقسيم الفنون التي قالوا فيها إلى ثلاث مجموعات :

الأولى : **مجموعة** **الفنون التقليدية** التي جارَوْا فيها شعراء المشرق , وإن اختلفت طريقة التعبير فيها عندهم في بعض أجزائها . وهذه الفنون هي : الغزل ,المدح , والرثاء , والحكمة , والزهد , الهجاء .

والثانية : **مجموعة الفنون التي لا تخرج عن كونها من الفنون التقليدية أيضا ,** **ولكنها توسَّعوا بالقول فيها** , لوجود مقتضيات هذا التوسع ودواعيه في مجتمعهم . وتتمثل هذه الفنون في : الحنين , وشعر الطبيعة , ورثاء المدن والممالك , والشعر العلمي .

والثالثة : **مجموعة الفنون الشعرية المحدَثة التي لم يُسبَقوا إليها** , وهذه هي : الموشحات والأزجال , وشعر الاستغاثة أو الاستنجاد .

وكل فنون الشعر الأندلسي تجمع بينها سمات عامة مشتركة , ثم ينفرد كل فن بعد ذلك بسمات خاصة تميزه , وفقا لطبيعته .

فمن سمات الشعر الأندلسي العامة غلبةُ الوصف الشعريّ والخيال عليه , والميل في طرائق التعبير إلى الاساليب البيانية من تشبيه واستعارة كناية , وإلى بعض الأساليب البديعية , كالطباق , والمقابل , وحسن التعليل , والمبالغة , وإن كانوا يخرجون بها إحيانا إلى الغلو . وأغلب معانيهم تتسم بالجِدَّة والطرافة , أما ألفاظهم فتتميز بالسهولة والوضوح والعذوبة , وقلما يعثر الإنسان في شعرهم على لفظة حوشية غريبة , أو لفظة تنبو عن الذوق , أو تعاف الأذن صوتها .

هذا عن أهم الصفات العامة أو المشتركة في شعرهم , أما الصفات التي ينفرد بها كل فن , فسنشير إليها في معالجتنا لكل فن على حدة .

والآن .... وبعد هذه المقدمة ننتقل للكلام عن فنون الشعر الأندلسيّ , بادئين بفنونه التقليدية .

**فنون الشعر الأندلسي التقليدية**

1. **الغزل :**

كان من المتوقع أن ينفعل الشاعر الأندلسي بمؤثرات الحياة الجديدة من طبيعية واجتماعية , فيبدّل من نظرته إلى المرأة , ومن مفهومه لقيم الجمال فيها , ولكن شيئا من ذلك لم يحدث , وظل الغزل الأندلسي كأخيه المشرقيّ غزلا حسيّا بعيدا عن تصوير خلجات النفوس , وما يضطرب فيها من شتى المشاعر . فإلى جانب تصوير المواقف التي تنشأ عادة بين المحبين من قسوة ولين , ووصل وهجران , وشكوى وعتاب , ودموع وبكاء , وما أشبه ذلك , وقف الغزل عند حدود الوصف المادي : فالقامة قضيب بان , والوجه قمر , والشعر ليل أو ذهب , والمحاجر نرجس , والأنامل سوسن, والرضاب خمر ...وهذا الأمر أدى إلى التشابه بين الشعراء في الموصوفات غير أن طرق التناول والتعبير شكلت اختلافا فيما بينهم .

ومن أبرز المواقف التي اتخذها شعراء الأندلس في تجربة الغزل :

* **الغزل الصريح** الذي عكس موقف بعض الشعراء من الغزل , فقد اتخذوا منه طريقا للهو والمتعة , ومن مثال ذلك قول علي بن عطية البلنسيّ :

ومُرْتجَّةِ الأعطافِ أمّا قَوامُـــــــــها فلَــــــدْنٌ , وأمّا رِدفــــــها فـــــــــرَداحُ

ألمَّت فصار الليل مِن قِصَرٍ به يطير , وما غيرُ السرور جَناحُ

* أما **الغزل العذري** فشكل موقف بعض الشعراء من الغزل ؛ حيث اتخذوا من العفاف حائلا بينهم وبين الغواية , وذلك ممثل قول ابن فرج الجَيَّانيّ :

بأيّـــــــهما أنا في الحــب بادي بشكر الطيف أم شــــــــــــكر الرقاد ؟

ســـــرَى فازداد بي أملي ولكن عفــفتُ فلـــــم أنـــــــــل منه مــــــــــــــــــــرادي

وما في النوم من حَرجٍ ولكن جرَيتُ من العفاف على اعتيادي

* ومن المعاني التي تمثل شيء من التجديد في غزل هذا العصر **الغزل بالنصرانيات** وذكر الصُلبان والرُهبان والنسّاك والكنائس , ومن ذلك غزل ابن الحداد في صبية نصرانية تُدعَى "نويرة " الذي من قوله فيها :

عساكِ بحقِ عيساكِ , مُرِيحةَ قلبيَ الشاكي

فإن الحُسنَ قدّ وَلَّاكِ إحيــائي وإهـــــــــــلاكي

وأولَعــني بصُلبــــــــــــــــــــانٍ ورُهبـــــــــــانٍ ونُسّــــــــــــــــــاكِ

ولم آتِ الكنائس عن هوىً فيهنَّ لـــــــــولاكِ

* كذلك شاع بين شعراء الأندلس " الغزل بالمذكر" وكانوا فيه مقلدين لبعض شعراء العباسيين من أمثال حماد عَجْرد , وحسين بن الضحاك , و أبي نواس , ولكنهم لم يُسِفُّوا فيه ويُفحشوا كما فعل هؤلاء الشعراء , ولم يكثروا منه كثرة أبي نواس مثلا . ومن أكثر شعراء الأندلس غزلا بالمذكر ابن سهل الإسرائيلي , ومن هذا النوع قول أحدهم في غلام رآه :

مرآكَ مرآك لا شمسٌ ولا قمرُ ووردُ خديــــــــكَ لا وردٌ ولا زهـــــرُ

في ذمة الله قلبٌ أنت ساكنه إنْ بِنْتَ بانَ , فلا عينٌ ولا أثرُ

وعلى ما يبدو على الغزل الأندلسي من سيماء الأناقة والدماثة , فإن نبض العاطفة الصادقة في أغلبه نبض ضعيف , إلا عند ابن زيدون فعاطفة الحب في غزله عاطفة قوية صادقة .

1. **المدح :**

المدح عند شعراء الأندلس لم يختلف عن المدح عند إخوانهم المشارقة , فقد نظموا المدائح وأكثروا منها , حتى لنرى بعض كبار شعرائهم من أمثال : ابن هانئ الأندلسي , وابن دراج القسطلي , وابن حمديس الصقلي , قد خرج شعرهم في المديح .

والدارس للمدائح الأندلسية يرى أن معظمها موجَّه إلى أمراء الأندلس وخلفائه وملوكه , وأنها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان : جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم , وهذه لا تخرج عادة عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصف بها , كصفات المروءة والوفاء والكرم والشجاعة , وما أشبهها . أما الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تُعد نصرا للإسلام والمسلمين , ويدخل في ذلك أحيانا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية .

والملاحظ على مدائحهم أن الشعراء يحتشدون لها , ويتأنقون في صياغتها الفنية غاية التأنق . وينِّعون في أساليبها بين الجزالة والفخامة , والرقة والسهولة طبقا لما تقترحه عليهم طبيعة المعاني .

أما عن طرائقهم في بناء قصائد المدح فإنها تختلف من شاعر لآخر : فمنهم من يبني قصيدته على موضوع المدح وحده فيدخل فيه من غير مقدمات . ومنهم من يبنيها على موضوعين , فيستهلها مثلا بالغزل , أو وصف الطبيعة , أو الخمر , أو الشكوى , أو العتاب , ثم يخرج إلى المدح . ومنهم من يبنيها على ثلاثة موضوعات , فيستهلها باثنين من الموضوعات السابقة ,حتى إذا بلغ غايته منهما انتقل إلى المدح .

وقد تختلف طريقة بناء قصائد المدح لدى الشاعر الواحد من قصيدة إلى أخرى , من حيث عدد الموضوعات التي يُقدِّم بها للمدح , فمرة يقدم بموضوع واحد , ومرة بموضوعين , وأخرى يبنيها للمدح بدون مقدمات .

والشاعر الأندلسي ليس مبتدعا في طريقة بناء قصيدة المدح على هذا النحو . وإنما هو يجري في ذلك على سَنَن الأقدمين , فقد كان من تقاليد قصيدة المدح عندهم أن تُبنى من مقدمة طللية , فنسيب , فوصف رحلة , ثم تخلص للمدح بعد ذلك .

وهذا الالتقاء بين شعراء الأندلس والقدماء في بناء قصيدة المدح القائم على تعدد الموضوعات , لا يعني التشابه الكلي بينهم , فشعراء الأندلس يخالفون السابقين لهم في نوعية الموضوعات التي يختارونها ( الغزل , وصف الطبيعة , الشكوى ، العتاب , الخمر ) , لأن لكل زمان موضوعاته التي بها يستطيع الشاعر أن يحوز الإعجاب , ويستميل ممدوحه للعطاء أو نيل الحظوة عنده .

ومن المدائح التي بنيت على المدح فقط قول ابن حمديس في مدح الأمير أبي الحسن بن علي بن يحيى :

تُفْشِي يداك سرائر الأغمادِ لقطاف هامٍ واختلاءِ هوادي [[1]](#footnote-1)

إلاَّ على غزوٍ يَبيد به العِـــــــــدى لله من غـــــــــــــــــــزوٍ لــــــــه وجهـــــــادِ

ما صونُ دين محمد من ضَيمهِ إلا بسيفـــــــــــك يومَ كــــلِّ جلادِ

وطلوعِ راياتٍ وقَوْدِ جحافـــــلٍ وقِـــــــــــــراعِ أبطــــــــــــالٍ وكَــــــــرِّ جيادِ

1. **الرثاء :**

الرثاء هو أبرز فنون الشعر الأندلسي اقتفاء لآثار طريقة العرب القدماء , ومراثي المتقدمين والمحدثين من شعراء الأندلس على السواء تبدو فيها ظاهرة الاقتفاء والتقليد , وإن كانت بدرجة أقل لدى الشعراء المحدثين .

والمراثي الأندلسية تتعدد في اتجاهاتها ومذاهبها تبعا لنزعة الشاعر في هذا الفن ,وعلاقته بالشخصيات التي يعرض لها بالرثاء .وأبرز هذه الاتجاهات :

* الاتجاه العقلي : وهو الذي ينبع من العقل أكثر مما ينبع من القلب وهو الاتجاه الذي يمثله الوزير والكاتب والشاعر ابن عبدون , والأعمى التُطَيْلي , ومن جاراهما من شعراء الأندلس . فالمرثية عند أصحاب هذا الاتجاه تبدو من منظور عقلي وكأنها صيغت وسيقت لتخفيف المصاب على قلوب المصابين بالعظة والعبرة , وذلك بضرب الأمثال بمن فنيوا من الأمم والملوك والممالك الغابرة , ليتخذ الإنسان منها العظة والعبرة لمراجعة سلوكه الدنيوي , وحتى يُسلِّم بالقضاء والقدر , وأن يتأسى ويتجمل بالصبر أمام مداهمة الموت لأحبائه وأعزائه . ومثال ذلك قول ابن عبدون في رثاء الوزير الفقيه أبي مروان بن سراج :

ما منك يا موت لا واقٍ ولا فادي الحكم حكمك في القاري وفي البادي

يا نائمَ الفكر في ليل الشباب أفقْ فصُبحُ شَيْــــــــبَكَ في أفــــــق النُّهى بادي

سَلْني عن الدهر تسأل غير إِمَّعَةٍ فألقِ سمعَـــــــــــــــــك واستجـــــــــــــــمع لإيرادي

نَعَمْ هو الدهر ما أبقتْ غَوائلـــُه على جَدِيـــــــــــــــسٍ ولا طَسْـــــــــــمٍ ولا عادِ

وأسلمـــــــــــــــت للمَنايا آل مسلمةٍ وعبَّــــــــــــــــــــــــــــــــــدتْ للـــــــرزايا آل عبــــــــــــــــــــادِ

* اتجاه العلماء الشعراء : ويبدو من مراثي هؤلاء أنها تأريخ لمن يَرثونهم أو ترجمة حياة لهم . فهم يُعدِّدون أعمالهم ومآثرهم في كلام لا يجمعه بالشعر إلا النظم , وتراهم في ذلك ينزعون عن الأساليب التقريرية إلى بعض الاساليب البيانية أو البديعية من استعارة أو كناية أو مبالغة ليضفوا على مراثيهم مسحة من الجمال . ومن هذا النوع قول عالم شاعر في رثاء الفقيه أبا مروان بن سراج :

أودَى ســــراجُ المجــــــــــــــــــــــــــد وابنُ سراجه فلنــــــــــــــــور شمس المكرمات أفولُ

لو كان عِلْـــــــــــمُ الدين يبكــــــــــــــــــي ميتا لبكى الحـــــــــــــديث عليه والتنزيلُ

كـــــــم من حـــــــــــــــــــــــديثٍ للنــــــــــبيّ أبَانَه فبــــــــدتْ له غُرَر تُرى وحُـــجولُ

كم مصعب في النحو راض جماحَه حتى غدا والصعبُ منه ذَلـــــــولُ

وفي هذا الرثاء يبرز العالم الشاعر العلوم التي برع فيها المرثي : علوم الدين والحديث والقرآن والنحو وكأنه يؤرخ لجانب من حياته بهذا القول .

* اتجاه الشعراء الرسميين : وهم الذين ينهضون لرثاء الملوك وبعض أفراد أسرهم , من أمثال الشاعر ابن زيدون , فله مراث جيدة في أبي الحزم بن جهور وزوجنه , وفي المعتضد بن عباد وأمه وبنته . ومثل هذه المراثي قوية في صياغتها ضعيفة في عاطفتها , ومهما افتنّ الشاعر في أسلوبها فإن طابع التكلف باد عليها , لأنه كما يبدو , يندفع للرثاء أداء لحق أو واجب , لا بباعث من حزن وفجيعة .

ومن نماذج هذا الاتجاه ما قاله ابن زيدون في رثاء الأمير أبي الحزم بن جهور :

"أبا الحزم" قد ذابتْ عليكَ مِنَ الأسى قلوبٌ مُنَاهَا الصَبْرُ لو سَاعَدَ الصَبْرُ

دعِ الدهــرَ يَفْجَــــــــــــــــعُ بالذَخَــــــــائِرِ أهــــــلَه فَمَا لِنَفـــــِـــيسٍ مُذْ طــــَـــوَاكَ الـــرَدَى قَدْرُ

* أما الاتجاه الأخير في مراثي الأندلسيين فهو المتجه إلى رثاء الآباء والأمهات والأبناء والأصفياء , وهذا الاتجاه هو الذي تتجلى فيه العاطفة الصادقة . ويضيق المقام هنا عن إيراد نماذج من رثاء كل هؤلاء , ولكن نكتفي بنموذج للدلالة على طبيعة هذه المراثي المنبعثة من قلوب شاعرة مجروحة . يقول المعتمد بن عباد في رثاء ولديه "الفتح" و" يزيد" بعدما قُتلا غِيلة على أيدي رجال يوسف بن تاشفين وهو في سجن أغمات :

يقولون : صبرًا ! لا سبيل إلى الصَبْرِ سأبكي وأبكي ما تطاول من عُمْرِي

هَوى الكَوكَبَانِ : الفتــــحُ ثُمَ شَقــــــِيقَهُ يَزِيدُ , فهل بعد الكَواكِبِ من صَبْرِ؟

1. **الزهد :**

امتدت نزعة الزهد إلى شعراء الأندلس , فقالوا فيه وأطنبوا , ويبدو أن كثيرين منهم كانت نفوسهم مهيئة لهذا اللون من الشعر ؛ بحكم ثقافتهم الدينية . ولسنا نعدو الحق إذا قلنا : إنهم فاقوا المشارقة في شعر الزهد , من حيث غزارته وتوليد معانيه , ورسم صوره القوية المؤثرة , يقول ابن الفَرَضي القرطبيّ في هذا الغرض :

أسيرُ الخطـــايا عنــــــــد بابـــــكَ واقفُ على وَجَــــــــــلٍ مما به أنتَ عــــــارفُ

يخافُ ذنوباً لم يغِبْ عنك غَيْبُها ويرجوك فيها , فهْو راجٍ وخائفُ

1. **الهجاء :**

لم يخل الشعر الأندلسي من الهجاء , فقد اقتفى الأندلسيون أثر المشارقة في هذا الفن أيضا , مع اختلاف فيما بينهم من حيث طولُ الهجاء وقِصَرُه ؛ فالهجاء عند المشارقة تكثر فيه القصائد الطوال وتقل فيه المقطّعات , وهذا على عكس ما يلحظه الدارس في هجاء الأندلسيين , حيث تكثر فيه المقطّعات وتكاد تنعدم الطوال .

ويمكن للمتتبع للهجاء في الشعر الأندلسي أن يقف على موضوعات مختلفة في هذا الغرض من أبرزها :

* **هجاء الفقهاء المرائين :** الذين تكسبوا بالعلم والزهد , وهذا النوع من الهجاء أقرب إلى النقد الاجتماعي .
* **هجاء المرابطين**
* **هجاء الملوك والحكام :** وهذا النوع هو أقرب إلى النقد الاجتماعي منه إلى الهجاء ومنه:

نادِ الملوك وقل لهم ماذا الذي أحدثتُمُ ؟

أسلمتمُ الإسلام في أيدي العِدَا وقعدتمُ !

وجب القيامُ عليكمُ إذْ بالنصارى قمتمُ !

لا تُنكروا شقَّ العصا فعصا النبيِّ شققتمُ

* **هجاء الأشخاص** :

وهذا النوع كان على قسمين :

1. هجاء الشخصيات المعروفة :

وهذا النوع كان يتوجه إلى شخصيات معروفه مشهورة ومثال ذلك هجاء ابن هانئ الأندلسي للوهرانيّ كاتب الأمير جعفر بن علي الاندلسي , ومن قوله فيه :

إنَّ أيامَ دَهْرِنَا سَخِفاتٌ فهْيَ أعوانُ كلِّ وَغْدٍ سخيفِ

إنِّ دهرًا سمَوْتَ فيه عُلُوّاً لَوضيعُ الخطوبِ وَغْدُ الصروفِ

1. هجاء الشخصيات العامة :

وهذا النوع كان يتوجه إلى شخصيات من عامة الناس من ذلك قول الَجّانيّ في جليس له في السجن :

ولي جليــــــــــسٌ قُـــــــــــــــــربُه مِـــــنِّي بُعْدُ الأمـــــــــــــــــــاني كُلِّـــــــها عَنــِّي

قد قَذيتْ من لحــــظِه مُقلتي وقُــــــــــــرِّحَتْ من لفــــــــــــــــظه أُذني

نادمَني في السجن مَن قُربُه أشدُّ في السجن من السجنِ !

* والنوع الأخير من الهجاء : **الهجاء الفاحش** المليء بالقذف والسباب , الذي يؤذي المشاعر , ويبعث الاشمئزاز في النفوس , وممن تورط في هذا اللون من الشعر البذيء أبو بكر المخزومي هجّاءُ الأندلس الذي قال عنه لسان الدين بن الخطيب : " كان أعمى شديد القِحَةِ والشر , معروفا بالهجاء , مُسلَّطاً على الأعراض "

**ثانيا : فنون الشعر الأندلسي الموسعة**

1. الحنين والغربة .
2. وصف الطبيعة .
3. رثاء المدن والممالك .
4. النظم التعليمي .

**أولا : الحنين والغربة في الشعر الأندلسي :**

* **مفهوم الحنين والغربة *:***

الحنين : هو شوق و توقان النفس مع الطرب والتنغيم .

والغربة : عاطفة تستولي على المرء وبخاصة الفنانين , مما يجعلهم يعيشون في قلق وكآبة لشعورهم بالبعد عما يهوون أو يرغبون , وقد تبرز هذه العاطفة في شكلين :

* ***غربة المكان :***

وهو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان في بعده عن وطنه وهذا النوع من الغربة ليس جديدا على الشعر العربي , فقد أخذ شعراء العصر الجاهلي يعبرون عن غربتهم وتركهم أوطانهم وتكبدهم عناء السفر , معبرين في أثناء ذلك عن حنينهم وأشواقهم إلى ديارهم وربوعهم التي غادروها باختيار منهم . أما أولئك الذين خرجوا مع الفتوحات الإسلامية تاركين أوطانهم إلى عوالم جديدة استقروا بها , فقد بقيت ذكرياتهم وعواطفهم مع عالمهم الأصلي الذي رحلوا عنه , ومازال الحنين والشوق يراودهم من آن لآخر , معبرين عن غربتهم في عالمهم الجديد , ورغبتهم الشديدة في العودة إلى معاهدهم وديارهم التي حالت الظروف دون عودتهم إليها .

* ***غربة الزمان :***

هي تلك الحالة النفسية التي تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية غير مواتيه تجعله يشعر بالغربة بين أهله وذويه في مجتمع قد نشأ فيه . ويرجع ظهور هذا النوع من الغربة إلى ما كان يسود بعض الفترات التاريخية في الأندلس من فتن وصراعات سياسية وظلم , فبعض الحكام كانوا بمثابة سيف مسلط على رقاب العباد بما في ذلك الشعراء , فهم يبغون في الأرض بغير الحق , يضاف إلى ذلك أن بعض الطبقات الاجتماعية استغلت الأوضاع المتدهورة وتسلقت حتى وصلت إلى مكانة ومنزلة اجتماعية لا تستحقها ووصلوا إلى مراتب ومناصب دون امتلاكهم مقومات تجعلهم جديرين بها بل زاحموا الشعراء والمفكرين في مكانتهم الاجتماعية القديمة وأزاحوهم عنها مما عمق لدى الشعراء الإحساس بالمأساة . ولقد أخذ التعبير عن هذا النوع من الغربة صورا متعددة تبدأ بذم الزمان الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء فهم يتوجعون باللائمة عليه ويلتمسون العذر لأنفسهم أن جاءوا في زمن ليس بزمانهم على نحو ما نجد في قول أبي محمد مالك القرطبي:

وإنّما العذرُ لي أن جئتُ في زمنٍ لا الجيلُ جيلي ولا الأزمانُ أزماني

* **أسباب ذيوع شعر الحنين والغربة في الشعر الأندلسي :**

كان لشعراء المشرق فضل السبق في شعر الحنين , واقتفى شعراء الأندلس أثرهم , لكنهم لم يقفوا عند هذا الحد , بل توسعوا فيه, وفاقوا المشارقة في شعر الحنين كما وكيفا , بل كانوا أكثر براعة وتجديدا منهم , ومن أهم الأسباب التي أدت إلى ذيوع شعر الحنين عند الشعراء الأندلسيين :

***أولا : الرحلة :***

وهي الانتقال والحركة لغاية ما . وقد وجدت في الشعر المشرقي في العصر الجاهلي في وصف الرحلة وكذلك في العصر الإسلامي في وصف رحلة الجهاد , وفي العصر الأموي والعباسي في وصف رحلة الصيدوما أن أطل العصر الأندلسي حتى كان للرحلة فيه مكانة عظيمة , وقد كانت الرحلة على نوعين اثنين , هما :

1. ***الرحلة داخل المدن الأندلسية :***

وقد كانت لطلب العلم أو لتدهور الأوضاع الأمنية .

وقول ابن سعيد بالغربة وهو بمرسية شرق الأندلس مصورا معاناة فراقه لربوع اشبيلية ؛ يعكس حضور هذا النوع في الشعر الأندلسي :

أقــــــلقــــــــــه وجده فباحا ... وزاد تبـــــــــــــــــريحه فنـــــــــــــــاحا  
 ورام يثني الدمــــــوع لـمّا ... جرت فزادت له جماحا  
 يكابد الموت كلّ حينٍ ... لو أنّه مات لاستراحا  
 ينزو إذا ما الرياح هبّت ... كأنّه يعشــــــــق الرياحا  
 يسألها عن ربوع حمــصٍ ... لـمّا نمــــا عرفها وفـــاحا  
 كم قد بكى للحمام كيما ... يعيره نحوها جناحا

1. ***الرحلة إلى بلاد المشرق :***

وكانت الرحلة لطلب العلم هي دافع القوي لخروج الأندلسيين إلى المشرق , وكذلك كانت هناك رحلة قسرية بسبب الفتن وظلم الحكام والخلافات الداخلية .

ومن ذلك قول أبو الحسن علي بن سعيد العنسي وهو في مصر :

هذه مصر فأين المغرب ؟ مذ نأى عني دموعي تسكب

فارقته النفس جهلا , إنما يُعـــرف الشيء إذا ما يذهـب

***ثانيا : الاعتقال والإبعاد :***

كانت السياسة سببا رئيسيا من أسباب السجن , بل هي الدافع الأقوى الذي من خلاله زج بالكثير من الشعراء الأندلسيين في السجون والمعتقلات , ومن أولئك الشعراء المعتمد بن عباد الذي سجن بأغمات بالمغرب , وقد قال في ذلك :

غريـــــــــــبٌ بأرضِ المغربيــنِ أسيــــــــــــرُ سيبـــــكي عليه منبـــــــرٌ وسريرُ

إذا قيل من أغمات قد مات جوده فما يُرتجى للجودِ بعدُ نشورُ

فيا ليت شعري هــــــــل أبيتَنّ ليــــــــــلةً أمامي وخلفي روضٌ وغديرُ

**موضوعات ومعاني شعر الحنين والغربة :**

انحصرت موضوعاته في تذكر الوطن والتشوق إلى معاهده وشكوى الغربة والابتعاد عن الأرض والأهل والخلان , والندم على الاغتراب , وتصوير الحسرات لفقدان البلد والبعد عنه , وبث التجارب الذاتية للشعراء في ديار الغربة, وتصوير ملاعب الصبا وتذكر أيامهم وعهودهم السعيدة في ديارهم . وظل الشاعر الأندلسي يتمزق قلقا وإحساسا بالغربة , وظلت شكواه عنيفة , وبان حنينه كبيرا شامخا لا تهزه هبات الريح العاتية .

**خصائص شعر الحنين والغربة :**

1. سهولة الألفاظ .
2. صدق العاطفة .
3. التعبير عن التجربة الذاتية , مثل : الارتحال والعزلة والاعتقال والغربة .
4. المزج بين الحنين والطبيعة , فقد افتتحت قصائد الحنين بوصف الطبيعة في كثير من القصائد التي يحن فيها الشاعر إلى وطنه .

**ثانيا : وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي**

يعتبر الشعر دائما صدى للبيئة اجتماعية كانت أو طبيعية والشعر الأندلسي في هذا النطاق يعتبر صورة أمينة دقيقة أنيقة لبيئة الأندلس , وبرغم أن شعراء الطبيعة الأندلسيين بدأوا تلاميذ لأساتذتهم المشارقة في أول أمرهم , فإن ذلك لم يمنعهم من أن يجوّدوا في فنهم ويحسّنوا في أعمالهم بحيث يمكن أن نقرر أنهم أتوا بشيء جديد في موضوعات شعر الطبيعة ومن الطريف في الأمر أن الأندلسيين لتعلقهم بشعر الطبيعة إلى حد الشطط والهوس جعلوا يطعمون المراثي بشعر الطبيعة فبينما تقرا مرثية لفقيد وتتوقع أن تسمع أنات محزون وغصص مكلوم إذ بك تسمع أبياتا في وصف الرياض والورد والأزاهير .

**عوامل ازدهار شعر الطبيعة في الشعر الأندلسي :**

تفوق الأندلسيون في ميدان وصف الطبيعة على شعراء المشرق , واتوا بالروائع الخالدة وساعدهم على ذلك مجموعة من العوامل , هي :

1. جمال الطبيعة الأندلسية التي افتتن بها شعراء الأندلس , فقد وهبهم الله طبيعة ساحرة خلابة , فبيئة الأندلس من اغنى بقاع الدنيا منظرا وأوفرها جمالا , ولذا شغف الأندلسيون بها , فأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها , ويستمتعون بمفاتنها , فوصفوا الرياض والبساتين , والأشجار والثمار , والزهار والأطيار , ووصفوا السحاب والرعد , والبرق والطيف , والأنهار والبحار, وقول ابن خفاجة خير دليل على هذا التعلق الشديد بجمالها حيث يقول :

يا أهل أندلــــــــــــس لله دركم ماء وظل وأشجــــار وأنهــــــــار

ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار

1. ازدهار الحضارة العربية في الأندلس ازدهارا كبيرا في كافة جوانب الحياة الأندلسية , فالقصور والحدائق والنوافير التي أبدعت يد الفن في هندستها وزخرفتها من الخارج والداخل , وتأنّقت في إنشاء حدائقها وكل ما يتعلق بها , جعلت شعراء الأندلس يتنافسون في وصفها وتصويرها .
2. ازدهار مجالس الأنس والبهجة واللهو التي كانت تُعقد في أحضان الطبيعة فتثير قرائح الشعراء فيكتبون قصائد تمتزج في أغراضها بوصف الطبيعة المحيطة بهم .

**أهم الشعراء الذين اهتموا بوصف الطبيعة في الشعر الأندلسي :**

ابن خفاجة , وابن زيدون , ابن رشيق , ابن شهيد , الرصافي الرفاء , وابن زمرك .

**اتجاهات الأندلسيين في شعر الطبيعة :**

1. التغنِّي بجمال طبيعة بلادهم .
2. وصف مجالي (مظاهر) طبيعة الأندلس .
3. وصف مجالس الأنس .
4. وصف قصور الأندلس
5. **التغنِّي بجمال طبيعة بلادهم :**

تغنى الشاعر الأندلسي بجمال الطبيعة فامتد ليشمل الأندلس كلها حينا فغناها ومجدها , وحينا وقف أمام طبيعة مدينة منها شبَّ ودرج على أرضها وعاش في كنفها .

* ومن أمثلة النوع الأول قول ابن سَفَر المَرينيّ , الذي تغنى فيه بجمال طبيعة الأندلس كاملة :

فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ تَلْتَذُّ نَعْمَاءُ وَلا يُفَارِقُ فِيهَا القَلْبَ سَرَّاءُ  
وَلَيْسَ فِي غَيْرِهَا بِالعَيْــــــــــشِ مُنْتَفَــــــعٌ وَلا تَقُومُ بِحَـــــقِّ الأُنْــــــــــــــسِ صَهْبَاءُ

أَيْنَ يُعْدَلُ عَنْ أَرْضٍ تَحُضُّ بِهَا عَلَى الـمُـــــــــدَامَةِ أَمْـــــــــــــــــــــــــــــوَاهٌ وَأَفْيَاءُ   
وَكَيْفَ لا يُبْهِجُ الأَبْصَارَ رُؤْيَتُهَا وَكُلُّ رَوْضٍ بِهَا فِي الوَشْيِ صَنْعَاءُ  
أَنْهَـــــــــــــــارُهَا فِضَّةٌ وَالمِسْكُ تُرْبَتُــــــهَا وَالخَـــــــــزُّ رَوْضَتُـــــــــهَا وَالــدُّرُّ حَصْبَاءُ

وَلِلهَوَاءِ بِهَا لُطْــــــــــــــفٌ يَـــــــــــــــــرِقُّ بِه مَنْ لا يَــــــــرِقُّ وَيَبْدُو مِنْـــــــهُ أَهْوَاءُ

* ومن النوع الثاني الذي تغنّى فيه الشعراء بجمال مدنهم نجد فيضا غزيرا من الشعر , منه على سبيل المثال قول ابن بُرد الأصغر في وصف رُصافة قرطبة التي بناها عبدالرحمن الداخل :

سَقَى جَوفَ الرُصَافَةِ مُسْتَهِلٌّ تُؤَلِّفُ شَمْلَهُ أَيْدِي الرِيَاحِ  
مَحَــــــــــــــــــــــلٌّ مَـــــــا مَـــــــشَيْــــــــــــتُ إلــــــــــــــيه إلاَّ مَشَى فِيَّ ابتهاجِي وانشراحي   
كأنَّ تـــــــــــــــــــــــَــــــــرَنُّمَ الأَطْيــَـــــارُ فِيهِ أَغَانٍ فَوقَ أَوتَارٍ فِصَاحِ   
كَأنَّ تَثــــــــَـــــنِّيَ الأَشْجــــــــــــــــَــــــــــــارُ فِيـــــهِ عَذَارَى قَدْ شَرِبْنَ سُلَافَ رَاحِ

كَأنَّ الجَدْولَ الـمُنْسَاب َ نصل ٌ صَقِيلُ الـمَتْنِ هُزَّ إِلى كِفَاحِ   
كَأنَّ رِيَاضــــــــــــــَــــــــــــــــــــــهُ أَبْرَادَ وَشـــــْـــــــــــــــيٍ تَعَطَّـــفُ فَوقَ أَعْطَافٍ مِلَاحِ

1. **وصف مجالي ( مظاهر ) طبيعة الأندلس :**

يخيل لمن يطّلع على شعرهم في هذا الاتجاه أنهم لم يغادروا شيئا مما وقع عليه بصرهم في أرضهم وسمائهم , إلاّ وقفوا أمامه وصوروه في شعرهم تصويرا يحيط بكافة أجزاء الموصوف , معتمدين في ذلك على التشبيهات والاستعارات والصور البيانية التي تقرب الموصوف إلى أذهان المتلقين حتى يصب مشاهدا .

ومن مجالي الطبيعة التي شدتهم إليها وتأنّقوا في تصويرها " الرياض " ومن ذلك قول الوزير أبي جعفر بن سعدون في وصف روضه :

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| وروضٍ كساه الطلُّ وشياً مجدَّدَا  إذا صافحتْه الريح ظلتْ غصونُهُ  إذا ما انسيابُ الماء عاينتَ خِلتَهُ ، |  | فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقعدَا  رواقصَ في خُضرٍ من القُضْبِ مُيَّدَا  وقد كسَّرتْهُ راحةُ الريح ، مِبردا |

1. **وصف مجالس الأنس**

يتجلّى هذا الاتجاه في وصف شعرائهم لمجالس الأنس والطرب التي كانوا يعقدونها أو يُدْعَون إليها .وما أكثر ما قالوا وأبدعوا في وصف هذه المجالس . ومن الناحية التاريخية بدأت مجالس الأنس كظاهرة اجتماعية في أخريات دولة الأمويين بالأندلس , ثم أخذت هذه الظاهرة في الشيوع والانتشار في عصر ملوك الطوائف وما تلاه من عصور , وشارك فيها الخاصة والعامة على السواء .

ومن هذه المجالس ما كان يُعقَد في المساء فيدوم طوال الليل , وما كان يُعقَد في الصباح فيدوم طوال النهار . وكلا النوعين من مجالس الأنس كان يشترك في وصف أمور بعينها , ثم ينفرد كلاهما بعد ذلك بأمور . كانا يشتركان في وصف الخمر وسُقاتها وأدواتها من كؤوس وأباريق , ثم تنفرد مجالس الليل بوصف مجالي السماء من كواكب ونجوم , بضيائها ولألائها . كما تنفرد مجالس النهار بوصف مجالي الأرض , ممثلة في رياضها وأزهارها , وأنهارها وجداولها , وغير ذلك من مباهج الأرض التي تقع تحت أبصارهم وينفعلون بها .

ومن هذه المجالس مجالس الملوك والأمراء , وكانت تُعقَد عادة في قصورهم , أو في زوارق على الأنهار تَحُفُ بها السفن . وهذه وتلك كان يُدعَى إليها أعيان الوزراء ونُبَهاء الشعراء , وأهل الموسيقى والغناء .

أما مجالس الأنس العامة , وهي بطبيعة الحال أكثر حُرية وانطلاقا , فكانت تُعقَد في الرياض , وعلى مجاري المياه وشطآن الجداول والأنهار المحفوفة بالأشجار والأزهار .

*سمات شعر مجالس الأنس :*

قد أُثِر عن شعراء الأندلس شعر كثير في وصف مجالس الشراب والأنس , ولهذا الشعر سمات خاصة , أهمها :

* + - 1. غلبة الارتجال عليه , لأنه كان يأتي للشعراء عفو الخاطر ووليد الساعة .
      2. قلة القصائد الطوال فيه , وكثرة المقطعات .
      3. غلبة عنصر الخيال عليه .

ومن شعر مجالس الأنس الذي يمتزج فيه وصف الخمر وساقيها بوصف بعض مجالي الطبيعة , قول الشاعر علي بن أحمد :

قُم فاســـــــــــــــقني والرياضُ لَابِسةٌ وَشْياً من النّوْر حَاكَهُ القَطْرُ

في مجلــــسٍ كالسمــــــــــــاءِ لاَحَ بهِ من وَجْهِ مَن قد هَويته بَدْرُ

والشمسُ قد عُصْفِرتْ غَلائلُها والأرضُ تَنْدَى ثيابُها الخُضْرُ

والنهرُ مثلُ الـمَجَــــــــرِّ حُــــــــــفَّ بهِ من الندامىَ كواكــــبٌ زُهْرُ

1. **وصف قصور الأندلس**

لم يقف تغني الشعراء بطبيعة الأندلس الحية والصامتة , بل تغنوا كذلك بوصف طبيعتها الصناعية , ممثلة في وصف قصور الأمراء والخلفاء والملوك , تلك التي أسرفوا في تشييدها على غرار قصور الأمويين والعباسيين في المشرق ,واتخذوها منتجعات للاستجمام والراحة , وللاستغراق في حياة اللهو والترف والنعيم , بعيدا عن مقر الحكم بالحاضرة , وكانت حياة القصور موقوتة بحياة بُنَاتِها , تبقى ما بقوا , وتذهب بالانتهاب والسلب بذهابهم .

ومن هذا الاتجاه وصف ابن عمار لقصر الدِّمَشْق بقرطبة :

كلُّ قصر بعد الدمـــــــــشق يُذَمُّ فيه طــاب الجَنَى وفـــــــــاحَ المشَمُّ

منظــــــرٌ رائقٌ , ومــــــــــــــــــاءٌ نميرٌ وثرىً عـــــــــــاطرٌ , وقصــــــــرٌ أشَمُّ

بِتُّ فيه والليلُ والفجرُ عندي عنبرٌ أَشْهَبٌ ومِسْكٌ أحَمُّ

**خصائص شعر الطبيعة :**

**•** أفرد شعراء الطبيعة في الأندلس قصائد مستقلة ومقطوعات شعرية خاصة في هذا الغرض . **•** يعتبر شعر الطبيعة في الأندلس صورة دقيقة لبيئة الأندلس ومرآة صادقة لطبيعتها وسحرها وجمالها فقد وصفوا طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية مُمَثَّلة في الحقول والرياض والأنهار والجبال وفي القصور والبرك والأحواض .  
**•** تُعد قصائد الطبيعة في الأندلس لوحات بارعة الرسم أنيقة الألوان محكمة الظلال تشد انتباه القارئ وتثير اهتمامه .   
**•** أصبح شعر الطبيعة نظراً للاهتمام به يحل محل أبيات النسيب في قصائد المديح , بل إن قصيدة الرثاء لا تخلو من جانب من وصف الطبيعة .  
**•** أصبحت الطبيعة بالنسبة لشعراء الأندلس ملاذاً وملجأ لهم يبثونها همومهم وأحزانهم وأفراحهم وأتراحهم إلا أن جانب الفرح والطرب غلب على وصف الطبيعة فتفرح كما يفرحون وتحزن كما يحزنون .

1. اختلاء : قطع . الهوادي : الأعناق . [↑](#footnote-ref-1)